وصف بعض مدن الشام

« قبل تسعمائة عام »

« سافر ناصر خسرو القبادياني المروزي من أُدباء فارس من بلاده سنة ٤٣٧ هـ (١٠٣٥ م) ووصف البلاد التي مرَّ بهـا في سورية وفلسطين ومصر وبلاد العرب وبلاد الفرس حتى عاد الى وطنه سنة ٤٤٤ هـ (١٠٤٢ م) وقد علق ما رآه بالفارسية في اوراق دعاها كتاب السفر او الرحلة (سفرنامه) ورسم بقلمه بعض الاماكن المقدسة التي رآها كالحرمين الشريفين والحرم القدسي فترجم رحلته بالافرنسية العلامة شيفر (Charles Scheffer) من علماء المشرقيات الفرنسيس ونشرها سنة ١٨٨١ على نفقة مدرسة اللغات الشرقية في باريز مشفوعة برسوم المؤلف الفارسي التي رسمها بقلمه فآثرنا ترجمة الفصل المتعلق ببلاد الشام التي اجتاز بها ليعلم من وصفه الفرق بين حالها امس وحالها اليوم » .

محمد كرد علي

« سروج ومنبج »

وصلنـا يوم السبت الثاني من شهر رجب ٤٢٨ (٢ شباط ١٠٤٧) الى مدينة سروج واجتزنا بعد يومين الفرات فوصلنا الى منبج اول مدينة من ارض الشام وكنا في اليوم الثاني من شهر بهمان والهواء جيد وليس من بناء حول هذه المدينة .

« حلب وقنسرين وسرمين »

وارتحلنا من منبج الى حلب وبينهـا وبين ميافارقين مئة فرسخ (فرسنك) وحلب على مارأيت بلدة طيبة يحيط بهـا سور متين قدّرت علوه بخمسة وعشرين ارشاً وقد بنيت قلعتها العظيمة بأسرها على الصخر ، وعندي ان حلب في عظمها كمدينة بلخ وهي عامرة جداً ودورها متصلة ويتقاضون فيها رسماً على البضائع المحمولة من سورية وبلاد الروم وديار بكر ومصر والعراق . وفي حلب تجار وباعة من هذه الاقطار المختلفة . ولها اربعة ابواب : باب اليهود و باب الله و باب الجنان و باب انطاكية . ورطلها المستعمل هو الرطل الظاهري و يساوي وزنه اربعمائة وثمانين درهماً .

واذا اتجه المرء من حلب صوب الجنوب يصل الى مدينة حماة على عشرين فرسخاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعدها حمص ومن حلب الى دمشق خمسون فرسخاً ومن حلب الى انطاكية اثنا عشر فرسخاً ومثل ذلك من حلب الى طرابلس (؟) ويقال ان المسافة الى القسطنطينية هي مائتا فرسخ . وفي اليوم الثالث عشر من شهر رجب (١١ شباط) سافرنا من حلب وبعد ان قطعنا ثلاثة فراسخ بلغنا قرية جند قنسرين ومن الغد قطعنا ستة فراسخ فبلغنا سرمين وهي مدينة لا سور لها .

«معرة النعمان»

وبعد ستة فراسخ (عن سرمين) نقول لك معرة النعمان هاءنذه وهي مدينة آهلة بالسكان كثيراً ويحيط بها سور من حجر وشاهدت بالقرب من باب هذه المدينة سارية من الحجر زبرت عليها كتابة بحروف ليست بعربية فسألت احدهم عن ذلك فأجابني ان هذا طلسم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها . فاذا جيء بعقرب من الخارج وأطلق يفرّ ويبتعد . وقدرت ان هذه السارية كان علوها عشرة آرش .

وأسواق المعرة طافحة بالارزاق والخيرات . وجامعها الاعظم مبني على أكمة قامت وسط المدينة ومن اي جهة اتجهت الى هذا الجامع كان عليك ان ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة درجة . ولا يزرع في هذه الجهات الا الحنطة . وتغل غلة حسنة ويكثر في قراها اشجار الزيتون والتين والفستق واللوز والكرمة . ومياه المعرة تجمع من المطر او تمتاح من الآبار .

وحاكم (؟) هذه المدينة رجل اعمى اسمه ابو العلاء المعري كان من ارباب الثراء وله عدد عظيم من العبيد والخدم والظاهر ان جميع سكان المدينة خدمته اما هو فقد تزهد ولبس ثياباً من الصوف الخشن وانقطع في داره فلا يخرج منه بتاتاً وخصص لطعامه اليومي نصف منّ من خبز الشعير لا يأكل سواه . ويبلغني ان باب منزله مفتح على الدوام وان نوابه ورجاله يقضون مصالح الناس ولا يرجعون اليه الا في مهمات المسائل وهو يجود بالاحسان من ماله على كل من قصده ويصوم الدهر ويسهر الليل ولا يهتم لامور الدنيا . وقد بلغ هذا الرجل العظيم في الشعر والادب درجة من الكمال أجمع اهل الادب في الشام والمغرب والعراق على الاعتراف بها وانه لم يبلغ احد في هذا العصر ما بلغه من المكانة في هذا الشأن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ألف ابو العلاء كتاباً سماه الفصول والغايات أدخل فيه جملاً معماة وكنايات نمقها بانشاء بليغ غريب بحيث لا يتأتى الان يفهم بعضها والواجب ان يقرأ كتابه عليه حتى يشرحه . وقد انتقد عليه في هذا الكتاب بانه حاول انتقاد القرآن . ويحيط بهذا الرجل مائتا طالب جاؤا من البلدان المختلفة وانقطعوا اليه يدرسون تحت نظره الادب والشعر . ونمي اليّ بانه نظم اكثر من مئة الف رباعية (Distique بيتان من الشعر) قال له بعضهم ان الله تبارك وتعالى قد اغناك ورزقك رزقاً عظيماً فلما ذا توزعه على الناس ولا تتمتع به . فأجابه انا لا املك الا ما اكلت . ولما وصلت المعرة كان ابو العلاء حياً يرزق .

« كويمات وحماة »

ووصلنا يوم ١٥ رجب ٤٣٨ هـ (١٥ شباط ١٠٥٧ م) الى كويمات ثم الى حماة وهي مدينة جميلة آهلة كثيراً بالسكان بنيت على شاطئ نهر العاصي وسمي هذا النهر بالعاصي لانه يجري الى بلاد الروم ويخرج من بلاد الاسلام ويدخل في بلاد غير المؤمنين فهو بذلك عاصٍ . وقد أقيمت على ضفافه نواعير كثيرة .

ومن حماة طريقان يذهب الواحد الى الشاطئ الغربي من الشام ويتجه الآخر جهة الجنوب فيصل دمشق وسرنا نحن في الطريق الاول وقد رأينا في الجبل عيناً أكد لنا بعضهم انها تجري كل سنة ثلاثة ايام بعد اليوم الخامس عشر من شعبان ثم لا يفيض ماؤها الى السنة المقبلة ويزورها عدد عظيم من الزوار يتقربون الى الله بعبادتهم وقد أقيمت في ذلك المكان أبنية عظيمة وحفرت آبار .

« طرابلس الشام »

وبعد ان ابتعدنا عن هذا المكان دخلنا في سهل مغشى على طوله بالنرجس الابيض وقد اضطرتنا كثرته الى السفر فبلغنا عرقة وعلى فرسخين منها وصلنا الى البحر فاتجهنا الى الجنوب وسرنا خمسة فراسخ الى طرابلس . والطريق من حلب الى طرابلس خمسون فرسخاً . وكان وصولنا الى طرابلس في ٥ شعبان سنة ٤٣٨ . وضواحي طرابلس مغشاة بالحقول المزروعة والبساتين والحدائق . وكان يري فيها قصب السكر والبرتقال والليمون والموز والنخيل وكان يوم وصولنا موسم عصير قصب السكر . يحيط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البحر بالمدينة من ثلاثة اطرافها وتصل اليها امواجه حال هياجه حتى تبلغ اعلا الاسوار . ويحيط بالقسم الذي يمتد الى اليابسة سور وخندق عظيم . والى جهة الشرق يفتح باب من الحديد صلب للغاية . والجدران وما يتبعها من الاسوار كلها من الحجر النحيت وهناك وضعت المنجنيقات على اعلا الاسوار وكان اهل طرابلس يخشون غارات الروم في سفنهم . ومساحة المدينة الف آرش . وبيوت المدينة ذات اربع وخمس واحياناً ست طبقات . والاسواق والطرق جميلة ونظيفة للغاية . اذا رأيتها ظننتك أمام قصر مزين أجمل زينة . ورأيت في طرابلس جميع اصناف القوت والأثمار وجميع المآكل التي رأيتها في فارس . ولكنها كانت وافرة مئة ضعف .

والمسجد الاعظم قائم في وسط المدينة وهو جميل للغاية مزدان باحسن زينة ومبني على غاية القوة والمتانة . وفي صحنه قبة عظيمة تعلو حوضاً من المرمر في وسطه فوارة يخرج ماؤها من منقار نحاس اصفر . وفي السوق نبع يخرج ماؤه غزيراً من خمسة انابيب يستقي منها جميع السكان . وما فاض يجري على الرمل ثم يصب في البحر . ويقدر عدد الذكور في طرابلس على ما روي لي بعشرين الف نفس . وفي اعمال طرابلس كثير من القرى ويصنع فيها كاغد جيد يشبه ورق سمرقند الا انه احسن صنعاً . ويتولى امر طرابلس سلطان مصر وقد قيل لي ان ذلك يرد الى العهد الذي جاء فيه الروم من بيزنطية وحاولوا الهجوم على هذا الحصن فدفعهم المسلمون المصريون وردوهم وهزموهم شر هزيمة . وقد ابطل سلطان مصر الضرائب الموضوعة على المدينة ولا يزال ينفق على الحامية التي فيها . وللحامية قائد وُكل اليه امر رد الاعداء عنها . وطرابلس الشام مستودع تجاري ترد اليه السفن من بلاد اليونان والافرنج والاندلس والمغرب . ومن حقوق السلطان جباية العشور التي ينفق منها على الجنود . وللسلطان في طرابلس سفن تذهب الى اليونان وصقلية والمغرب . وسكان طرابلس شيعيون وقد أنشأ الشيعة في كل البلاد جوامع جميلة . ولهم في طرابلس ابنية تشبه الرُبُط ولكنها غير مسكونة . ويسمونها المشاهد . ولا يوجد خارج طرابلس سوى اثنين او ثلاثة من هذه المشاهد .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« القلمون وترابرزن وجبيل »

ثم سافرنا من طرابلس جنوباً على شاطيء البحر فوصلنا على مسافة فرسخ الى حصن اسمه القلمون في داخله نبع ماء ووصلنا الى ترابرزن (لعلها البترون) وهي على خمسة فراسخ من طرابلس ومنها الى جبيل وقد بنيت على شكل زاوية قاعدتها ساحل البحر . و يحيط بها سور عالٍ متين للغاية وقامت حواليها النخيل وغيره من اشجار البلاد الحارة ورأيت ولداً يحمل بيده وردة بيضاء وأخرى حمراء قد تفتحت وكان الوقت في اليوم الخامس من شهر شباط من سنة ٤١٥ للتاريخ الفارسي .

« بيروت »

وسرنا من جبيل الى بيروت وقد رأيت فيها قوساً من حجر والطريق تحته وقدرت ان علوه خمسون كزاً وسمكه بحيث لا يستطيع رجلان ان يحيطا به الا بصعوبة وقد بُني على هذه الدعائم حنايا من الصخر الضخم لا تلتحم اجزاؤها بملاط ولا بجبس وقد قام القوس الاعظم في الوسط و يزيد علوه على الحنايا خمسين ارشاً . وقدرت ان علو كل حجر من الحجارة التي يتألف منها سبعة ارشات في عرض اربعة ووزنه نحو سبعة آلاف من وقد نقشت جميع هذه الاحجار وزينت بنقوش بديعة فلما يشاهد لها مثيل حتى في الصور على الخشب ولم يبق من بناء في جوار هذا المصنع . وقد سألت عن ذلك فأجبت بان هذا البناء كان باب حديقة فرعون وان تاريخه قديم للغاية . وجميع السهل المجاور له تغشاه عمد وسوار وتيجان منقوشة من الرخام النحيت ومنه المدور والمربع والمسدس والمثمن . والحجر من الصلابة بحيث لا يعمل فيه الحديد وليس في الجوار من جبل حتى يقال انه استخرج هذا الحجر منه . وهناك حجر آخر يظهر انه صنعي والحديد لا يفله ايضاً . وفي ولايات الشام اكثر من خمسمائة الف عمود وتاج وقاعدة وما من يعلم فيم كان استخدامها ولا من اين جلبت .

« صيدا »

ورحلنا من بيروت الى صيدا وهي مدينة على ساحل البحر تحيط بها حدائق واسعة مغروسة بقصب السكر و يحميها سور من الصخر فيه ثلاثة ابواب وجامعها الاعظم جميل وله رواق خاص وارضه مغطاة كلها بالحصر المزينة بالصور المختلفة . والسوق جميل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومزدان ألطف زينة بحيث ظننت لما رأيته انه زين لقدوم ملك او لوصول نبأ سار. وسألت عن علة هذه الزينة فقيل لي ان هذة عادة المدينة وانها على الدهر متجملة على هذه الصورة .

و يظهر ان الحدائق والبساتين قد قام بغرسها ملك رغبةً منه وفي وسط كل واحد منها بيت وكانت معظم الاشجار ملاءً بالاثمار .

« صور »

ومن صيدا بلغنا صور بعد ان اجتزنا المسافة بينهما في خمسة فراسخ ومدينة صور على شاطيء البحر بُنيت على صخر يمتد في الماء بحيث ان الجزء المحصن من السور القائم على اليابسة لا يكون اكثر من مئة كوز (Guez) وسائر السور غائص في الماء معمول من الحجر النحيت ملئت من القطران لتحول دون نفوذ الماء . وأرى ان مساحة بقعة صور الفا ارش مربع والبيوت ذوات خمس او ست طبقات يتصل بعضها ببعض و يرى في اكثرها فوارات والاسواق جميلة وفيها حاجيات الحياة بكثرة واشتهرت صور من بين جميع مدن الساحل الشامي بغناها ونعمتها . ومعظم سكانها شيعة والقاضي رجل غني وذو اخلاق رضية واسمه ابن ابي عُقيل وكان سنياً . وفي خارج المدينة مشهد حوى كثيراً من الطنافس والباري والمصابيح والثريات المعمولة من الذهب والفضة . وقد قامت مدينة صور على اكمة و يجري اليها نهر من ينابيع في الجبل أُنشئت له قناة من الحجر في البرية ليسيل فيها . وفي اعلاه قناة تفتح السبيل أمام الماء وأمام صور في الجبال التي ذكرتها يفتح وادٍ اذا سار فيه المرء منجهاً صوب الشرق يبلغ دمشق وهي بعيدة عن صور سبعة عشر فرسخاً .

« عكا »

غادرنا صور وسرنا سبعة فراسخ فبلغنا عكا واسمها في الكتابة الرسمية مدينة عكا. بنيت على اكمة قسم منها وعر والآخر معبّد . وجميع مدن السواحل الشامية مبنية على اماكن مرتفعة لان القوم يخشون ان تداهمها المياه او تضربها امواج البحر التي تتكسر على ضفافه . والمسجد الاعظم وسط المدينة وفي اعلا قمة من المدينة . وقد جعلت السواري التي يقوم عليها من الرخام وفي خارجه على يمين المتجه الى القبلة قام ضريح النبي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صالح عليه السلام وبعض صحن الجامع مبلط والآخر قد ستره العشب . و يزعمون ان هذا الجزء قد حرثه آدم عليه الصلاة والسلام . وقد ذرعت سطح المدينة فكان طولها الفي آرش وعرضها خمسمائة و يحيط بعكا سور متين للغاية و يحيط بها البحر من الغرب والجنوب والميناء في جنوبها ولمعظم مدن ساحل الشام موانٍ و يطلق اسم ميناء على كل خليج بني لتكون فيه السفن بمأمن . و يشبه هذا الجون اصطبلاً يستند حائطه الداخلي الى المدينة وحائطاه الآخران يمتدان في البحر وقد فتح في طرفه مدخل عرضه خمسون كوزاً وله سلسلة مربوطة من احد الحائطين بالآخر . ومتى أُريد ادخال سفينة الى الميناء يخفضون السلسلة حتى تنزل الى الماء فتجتاز السفينة عليها ثم يرسلونها ثانية حتى لا تنالها مراكب العدو بسوء اذا دهمتها من البحر .

وعلى مقربة من الباب الشرقي الى اليمين نبع ماء ينزل اليه في ست وعشرين درجة واسمه عين البقر و يزعمون ان آدم عليه السلام اكتشفها وانه كان يسقي منها بقرته ولذلك سميت عين البقر .

واذا خرجت من عكا واتجهت نحو الشرق تلقى جبلاً دفن فيه انبياء عليهم السلام وهو يرتفع عن طرف الطريق الذي يسيرون عليه اذا أراد المرء الذهاب الى الرملة . وقد عزمت ان اذهب اليه لزيارة هذه القبور وأغنم البركات التي خصها الباري تعالى بها . وقد ذكروا لي في عكا ان في تلك الطريق اشقياء يسيئون معاملة الغرباء و يسلبونهم مامعهم فخبأت ما كان معي من الدراهم في جامع عكا وخرجت من المدينة يوم ٢٣ شعبان سنة ٤٢٨ هـ (١٨ آذار ١٠٤٦ م) فزرت في اليوم الاول قبر عكا باني مدينة عكا وكان رجلاً صالحاً باراً . ولما استصحب معي دليلاً يهديني الى الطريق فخرت في تعيين الطريق التي يجب سلوكها فقضت حكمة الله تقدس اسمه ان ألقى في ذاك اليوم رجلاً فارسياً اصله من اذربيجان كان زار هذه القبور المباركة وجاء مرة ثانية للتبرك بزيارتها وصليت ركعتين لاشكره تعالى على نعمته التي تفضل بها وسجدت اعترافاً بجميله على ان وفقني الى اتمام القصد .

وصلت الى قرية اسمها بروة فزرت فيها قبري اليسع وشمعون عليهما السلام ثم سرت الى قرية دمون فرأيت فيها مغارة صغيرة اكد لي القوم انها مغارة ذي الكفل وبعد ذلك قصدت الى قرية عبلين حيث دفن هود وقد قامت عليه شجرة خرنوب وزرت ايضاً قبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العزير ثم اتجهت صوب الجنوب فوصلت قرية حاضرة وفي غربيها واد صغير تنبع منه من الصخر عين صافية وقد بني مقابل هذه العين في الصخر مسجد في داخله غرفتان من الحجر و باب المسجد من الضيق بحيث ان الرجل يدخل اليه بصعوبة وفيه قبران متناوحان احدهما الى جانب الآخر وفي الاول شعيب وفي الثاني ابنته التي كانت امرأة موسى . و يُعنى سكان القرية بهذا المسجد و بهذه القبور كل العناية و يجعلون فيها مصابيح وفرشاً .

وبعد ذلك اتجهت جهة أربل (او أربد) وفي جهة القبلة جبل قام في سفحه اربعة قبور وهي قبور اربعة من اولاد يعقوب اخوة يوسف . ولما انتقلنا من هذا المكان رأينا أكمة قامت في سفحها مغارة فيها قبر ام موسى وفيها صليت وتعبدت . وتوغلت في واد رأيت في أقصاه بحيرة قامت مدينة طبرية على شاطئها وطول هذه البحيرة نحو ستة فراسخ وعرضها ثلاثة والمدينة على الشاطيء الغربي منها و يصب في البحيرة ماء الحمامات وما فاض من استعمال السكان . ومن البحيرة يستقي اهل طبرية ماء الشفة وكذلك السكان النازلون في جوار البحيرة . وسمعت ان اميراً كان جاء طبرية قديماً فأمر ان تغلق جميع المجاري التي تحمل القاذورات والمياه المالحة الى البحيرة فأنتن الماء حتى لم يعد احد يستطيع شربه . وعندئذ اسال جميع الاقنية فعاد الى ماء البحيرة طعمه اللذيذ الذي كان له سالفاً .

ويحيط بطبرية سور متين يمتد من شاطيء البحيرة ولا سور للقسم المتصل بالماء من المدينة . ووسط البحيرة صخور وقد بنيت وسط المياه أبنية عديدة وهي عبارة عن قباب للنزهة تقوم على عمد من المرمر غمست في المياه و يكثر السمك في بحيرة طبرية من وراء الغابة . وقد قام المسجد الاعظم وسط المدينة وعلى مقربة منه عين ماء بني عليها حمام وماؤها حار بحيث لا يستطيع المرء ان يصبها على بدنه الا اذا مزجها بماء بارد و يقال ان هذا الحمام من عمل سليمان بن داود عليهما السلام وقد دخلت هذا الحمام . وفي الجزء الغربي من المدينة مسجد اسمه مسجد الياسمين وهو بناء لطيف وفي وسط صحنه سطح عال بنيت فيه محاريب وحوالي هذا السطح غرسوا ياسمين وسمي المسجد باسمه .

وفي رواق غير مسور من جهة الشرق قبر يوشع بن نون وعلى السطح قبور اثنين وسبعين نبياً قتلهم ابناء اسرائيل . وفي جنوبي طبرية اوجنوبي البحيرة تجري بحيرة لوط وماؤها مر جداً واليها يجري النهر الذي يخرج من بحيرة طبرية وكانت مدينة لوط على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شاطيء تلك البحيرة ولم يبق لها اثر . وبلغني انه يستخرج من قعر بحيرة طبرية مادة في شكل البيضة لونها اسود وتشبه الحجر ولكن ليس لها صلابته فتستخرج وتكسر وتحمل الى المدن والولايات . و يزعمون ان هذه المادة اذا جعلت قطعة منها في جذع شجرة تسلم من الديدان بدون ان تتأثر جذوعها . وبذلك لا تسطو على الغراس الديدان ولا الحشرات التي تعيش تحت الارض . واني لادع تبعة هذه الرواية على ناقلها . وقد ذكر لي راوي هذه القصة ان الصيادلة يبتاعون هذه المادة و يدخلونها في العقاقير للنجو من دودة اسمها النقرة .

وفي طبرية تعمل حصر تستعمل للصلاة تساوي الواحدة منها خمسة دنانير مغربية . وعلى غربي المدينة قصر من الحجر النحيت على قمة جبل وفيه كتابة بحروف عبرانية وفيه انه حفر يوم كان برج الثريا في آخر برج الحمل . وقبر ابي هريرة خارج المدينة صوب القبلة ولا تمكن زيارته لان سكان هذه المقاطعة شيعة واذا قصد واحد للصلاة يصخب الاولاد عليه و ينا كدونه و يهينونه و يرشقونه بالاحجار . فعدلت عن هذه الزيارة وذهبت الى قرية اسمها كفر كنة وفي جنوبها تمتد اكمة قام في اعلاها دير جميل له باب متين جداً وفيه قبر يونس وفي خارج الدير بئر لذيذ المذاق من وراء الغابة وبعد ان صليت في هذا المشهد عدت الى عكا البعيدة عن ذلك المكان اربعة فراسخ وقضيت يوماً في عكا ثم سرنا منها الى قرية حيفا وكانت الطريق التي سلكناها مغشاة بطبقة كثيفة من رمل يستخدمه الصاغة في فارس و يطلقون عليه اسم رمل عكا .

قامت حيفا على شاطيء البحر وفيها النخيل واشجار أخرى كثيرة وشاهدت فيها عملة كثيرين متوفرين على انشاء مراكب وتسمي هذه الابنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي وعلى فرسخ منها قرية الكُنَيسة وهناك يبتعد الطريق عن البحر و يتجه نحو الشرق جهة الجبل و يجتاز ارضاً مستوية مصخرة تسمى وادي التماسيح وبعد فرسخين يصير الطريق على الشاطيء حيث رأينا عظام بعض الحيوانات البحرية اختلطت بالطين وضربتها الامواج زمناً فأصبحت صورتها كالحجر .

وصلنا الى قيسارية وبينها وبين عكا سبعة فراسخ وقيسارية مدينة جميلة تشقها المياه الجارية وفيها النخيل والليمون الحلو والمر و يحيط بها سور متين فيه باب من حديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي هذه المدينة كثير من العيون وجامعها الاعظم من اجمل الابنية. اذا جلست في صحنه تبصر البحر وما فيه من المناظر وفي الصحن إجانة (دورق) من المرمر يشبه اناءً من عمل الصين وهو من الضخامة بحيث يسع مئة من من الماء .

غادرنا قيسارية يوم السبت آخر يوم من شعبان (١٠ آذار) وسرنا مدة فرسخ على الرمل الذي هو أشبه برمل مكة ثم شاهدنا في الطريق الذي كان تارة في السهل وأخرى في الجبل عدداً كبيراً من اشجار التين والزيتون . وبعد بضعة فراسخ بلغنا مدينة اسمها كفر سابا او كفر سلام وهي على ثلاثة فراسخ من الرملة والاشجار على جانبي الطريق محيطة به كما قدمنا .

انتهى بنا أمد السير يوم الاحد اول يوم من شهر رمضان (١١ آذار) الى الرملة وبينها وبين قيسارية ثمانية فراسخ . والرملة مدينة عظمى يحيط بها سور عالٍ متين عمل من الحجر والملاط وهي على ثلاثة فراسخ من البحر وشرب اهلها من مياه الامطار يجمعونه في كل موسم في حوض وعندهم منه مايحتاجونه على الدوام وفي وسط الجامع الكبير صهاريج واسعة اذا ملئت يستطيع الانسان ان يستقي منها بحسب حاجته . ومساحة الجامع الاعظم ثلاثمائة قدم في مائتين . وقد نقش في اعلا الصفة بان الارض زلزلت زلزالاً عظيماً يوم ١٥ المحرم ٤٢٥ (١١ كانون الاول ١٠٣٣) فهدمت عدة أبنية ولم يجرح احد من السكان .

والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الابنية والدور مغشاة بصفائح من الرخام مرصعة باتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له و برمل تلك البلاد و بالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجرة الا من حيث العرض . ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والاخضر والاحمر والاسود والابيض و بالجملة من مختلف الالوان .

وفي الرملة يخرج نوع من التين اللذيذ ولا يوجد مثله في بلد آخر ومنها تحمل الى سائر البلدان وتعرف هذه المدينة في الشام والمغرب باسم فلسطين (كذا) انتهى بنا نفس السير في اليوم الثالث من شهر رمضان (١٤ آذار) بعد ان غادرنا الرملة الى قرية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خاطون (لعلها اللاطرون او النطرون) ثم الى قرية العنب وقد لاحظنا في الطريق كثيراً من شجر البطم ينبت نباتاً طبيعياً في السهل والجبل . وشاهدنا في قرية العنب عيناً تنبع من صخر وكان ماؤها عذباً طيباً وقد وضعت هناك أجران لسقاية ابناء السبيل وأقيمت مساكن لنزولهم عمرها اهل الخير طلب الثواب .

وبعد قرية العنب يبدأ الطريق بالارتفاع تدريجاً حتى خُيل لنا بعد ان صعدنا الجبل ونزلنا الى الجهة المقابلة اننا وصلنا الى المدينة ولكن بعد ان صعدنا زمناً بلغنا سهلاً عظيماً مستوياً ومعظمه حجري على حين تبدو الارض في الاماكن الاخرى عريانة مجردة وفي اعلا نقطة من هذا النجد قامت مدينة بيت المقدس . وهي على ستة وخمسين فرسخاً من طرابلس على ساحل الشام وعلى خمسمائة وستة وسبعين فرسخاً من بلخ وكان وصولنا القدس في اليوم الخامس من رمضان ٤٣٨ (١٦ آذار ١٠٤٦) وقد مضت سنة شمسية منذ غادرنا مسقط رأسنا وطفنا المعالم زمناً دون ان نقف في مكان ودون ان ننال الراحة التامة في موضع . و يطلق سكان سورية وفلسطين على مدينة بيت المقدس اسم القدس وكل من يعجز من سكان هذه الارجاء عن الرحلة الى مكة يذهبون الى القدس في موسم الحج ويقيمون فيها خلال الموقف قائمين باعمال الحج محتفلين بعيد الاضاحي . و يجتمع في بعض السنين في الايام الاولى من ذي القعدة اكثر من عشرين الف رجل في هذه المدينة و يأتون معهم باولادهم ليختنوهم . و ينزل القدس النصارى واليهود زرافات زرافات من ولايات مملكة الروم والاقطار الاخرى ليزوروا الكنيسة والمعبد . وستجد وصف الكنيسة العظمى في محله .

وتحيط ببيت المقدس جبال تنبت فيها الحبوب وفيها اشجار الزيتون والتين وغيرها وجميع الاراضي خالية من المياه ومع ذلك فان المأكولات كثيرة رخيصة . ومن رؤساء البيوت من لا تقل وارداتهم من زيت الزيتون عن خمسة آلاف من ّ و يجعل هذا الزيت في آبار وأحواض و ينقل الى اطراف المعمور . و يقال ان المجاعة لم تشتد قط في بلاد الشام . وذكر لي الثقة ان احد الاولياء رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فقال له : يا رسول الله أعني على العيش فأجابه الرسول (انا أضمن رزقك من خبز الشام وزيتها) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهاءنذا أصف لك مدينة القدس فهي قائمة على مرتفع وليس فيها غير ماء المطر ولئن كان في بعض القرى المجاورة عيون فليس لها اثر داخل المدينة و يحيط بها سور وثيق البنيان عمل من الحجر والملاط وابوابه من الحديد . واذ كانت المدينة مبنية على الصخر فليس في جوارها مباشرة شجر . وبيت المقدس بلدة عظيمة وكان فيها عندما زرتها عشرون الف رجل واسواقها جميلة وبيوتها عالية وتربتها ممزوجة بالحجارة وقد نحتت الطرق وعبّدت بحيث ان الامطار تنظفها وتغسلها وار باب الصنائع فيها كثار ولكل اهل صنعة في السوق مكان خاص بهم .

والمسجد الاعظم حيث تقام صلاة الجمعة هو الى الشرق من جهة السوق واسوار المدينة عبارة عن حيطانه ومتى خرج المرء من المسجد يرى أمامه سهلاً عظيماً منبسطاً اسمه ساهرة وفي هذا السهل على ما يزعمون تقوم القيامة وتحشر الاجساد و ينصب الميزان وبفضل هذا المعتقد يأتي من جميع اقطار العالم الى القدس جمهور كبير من البشر ينزلونها ليموتوا فيها وليكونوا على مقربة من المكان الذي عينه المولى تعالى وتحقق فيه ارادته . اللهم ياباريء النسم احفظ عبيدك واغفر لهم خطاياهم آمين يا رب العالمين اهـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net